آفاق المعرفة :

نحن والاستشراق:

علاقة اشكاليّة

بقلم : د. عبد النبي اصطيف

نجيب محفوظ

واهمال الأدب القديم

بقلم : د. كمال نشأت

نافذة

على العالم

ترجمة واعداد : كمال فوزي الشرابي

نموذج الحرب

في القصّة الفلسطينية

القصيرة

أحمد حسين حميدان

نحن والاستشراق: علاقة اشكالية (*)

بقلم: د. عبد النبي اصطيف

يحسن بالمرء بادىء ذي بدء أن يقوم بشيء من تحديد لموضوعه فيشير إلى الصوى التي تجدد ميدان بحثه حتى يساعد متلقي نصه على رسم آفاق توقعاته على نحو أكثر دقة من ناحية ويحفزه علي مسايرة هذه الآفاق بكل ما يمكن أن يحمله استشرافها من رضى أو خيبة من ناحية ثانية، ويتحلل، بوصفه منتجاً لهذا النص من تبعات سوء الفهم الذي تستدعيه موضوعات اشكالية لتوها كالاستشراق.

١ - أول ماينبغي توضيحه هو أن المقصود بمصطلح «الاستشراق» Orientalism الذي سيستخدم في ثنايا هذا البحث «كل معرفة ينتجها الآخر Other عن

(*) القسم الأول من بحث مكون من ثلاثة أقسام قدم إلى المؤتمر العالمي «آفاق العلاقات الثقافية العربية الأوروبية: الماضي - الحاضر - المستقبل» الذي عقد في جامعة غرناطة بين ٤ - ١٢ من شهر اذار ١٩٩٠ بدعوة من المعهد المصري للدراسات الإسلامية ومعهد التعاون الدولي مع العالم العربي في مدريد، وقرئت خلاصته في الجلسة الختامية.

الوطن العربي بغض النظر عن صورتها التي تتخذها لنفسها . و معنى هذا أن الاستشراق يشمل ما أنتجه هذا الآخر من إنشاءات discourses (سياسية و اعلامية و تاريخية وجغرافية وانتروبولوجية وادبية ونقدية و سيرية و بيلوغرافية) وأعمال فنية (موسيقية وتشكيلية) . ولما كانت قسمة كهذه للمعرفة الاستشراقية (إلى إنشاءات مختلفة وأعمال فنية) تقتضي من الناظر فيها درجة دنيا من التخصص البحثي فان الاهتمام سوف ينصرف في هذا البحث إلى الانشاءات المعرفية الاستشراقية دون الأعمال الفنية ، التي ينبغي أن تترك لمتخصص في الموسيقى و الفنون التشكيلية و العمارة و تاريخها ، خبير بفصول المواجهة العربية- الغربية يستطيع أن يتفحصها بعين الخبير ويحكم عليها حكم العالم المتبصر بظروف انتاجها والواعي بوظائفها المختلفة التي توختها المجتمعات الغربية المنتجة فيها . و ربما كان من الموضوعية و الصدق في آن معا أن ينوه بداية بأن الصورة المقدمة للاستشراق في هذا البحث ستكون محكومة على نحو أو آخر بأمرين .

١) — بالإنشاءات الاستشراقية التي تيسر لصاحب هذه السطور الاطلاع عليها خلال العقدين الاخيرين في أثناء إقامته في الغرب للتحصيل العلمي و قبلها و بعدها ، وهي على أي حال ليست مادة محدودة بسبب طبيعة مواجهته لهذا التقليد التي شملت فيما شملت الاحتكاك الشخصي بمنتجي هذه الإنشاءات من أفراد و مؤسسات ، و المتابعة الدائبة لمختلف ما ينتجه كلاهما ويبثه عبر قنوات نشر المعرفة الاستشراقية كالكتب ، و الدوريات ، و السلاسل العلمية ، و الترجمات و حلقات البحث ، و المنتديات ، و المؤتمرات ، و الأحاديث الاذاعية و

التلفزيونية ، و المشاركة المعتبرة فيها(١) ، و الكتابة و الحديث عن بعض ذلك ومناقشته ، وتقويمه،في مرافق النشر العربية المختلفة(٢) إضافة إلى الإذاعة والتلفزيون في سورية (٣) .

٢) ـ بطبيعة تخصصه و هو ميدان النقد المقارن (العربي و الاوروبي) إذ أنه معني أساسا بالفكر الأدبي العربي في القرنين الأخيرين بشكل خاص ، و بطرق تشكله ، و عوامله ، و مكوناته الداخلية و الخارجية ، و معنى هذا أنه على بينة من واقع المواجهة الشاملة بين العرب و أوربا ، وواع لمختلف وجوهها وعقابيلها ، وظروفها و مدى تأثيرها الكبير في عملية إنتاج الإنشاءات الاستشراقية من جهة و الانشاءات العربية من جهة أخرى ،ولكنه ربما كان أكثر اهتماما بالدراسات المتصلة بالشؤون الثقافية و الأدبية منه بسواها ، وذلك أمر طبيعي إذ لا يمكن للتكوين الثقافي للباحث أو لمجالات عمله إلا أن يترّكا أثراً ما في اختياره لمادته أو في طريقة تناوله لها .

١ً ـ ب :

أما ثاني ما ينبغي تبينه لأي ناظر في هذه الإنشاءات الاستشراقية فهو أنها تشكل تقليدا ثقافيا (يتمتع بحد أدنى من التماسك و الانسجام الداخلي والعراقة النسبية) ارتبطت نشأته بحاجات مجتمع الآخر The Other في مواجهته للمنطقة العربية عبر القرون وبالوظائف المختلفة التي أسندت له في عملية المواجهة هذه ، و بالتالي فان هذه الانشاءات يجب أن تدرس في سياق من هذه الوظائف و تلك الحاجات و تطورها المحفوز بوقائع المواجهة العربية ـ الأوربية و كذلك

فانها ينبغي أن تعامل على أنها إنتاج خارجي An Outsider يكتب بوصفه خارجيا مهما كانت درجة ارتباطه بالوطن العربي وثيقة . فالمستشرق باحث مدين بتكوينه الثقافي لمجتمعه ، يمارس — عندما ينتج أية معرفة عن الوطن العربي — دوره الاجتماعي الذي أسنده اليه هذا المجتمع ، و يقوم بالوظيفة التي اختارها لنفسه ضمن هذا الدور ، و هو لذلك يتوجه إلى هذا المجتمع بنتاجه ، و ينتظر صدى معينا له ماديا أو معنويا ، و بالتالي فان هذا المجتمع هو الذي يرسم آفاق التوقعات التي تحفز إنتاج إنشاءات المستشرق . صحيح أنه قد يلبي هذه التوقعات وقد يحبطها ، ولكنها ستظل ماثلة في ذهنه في أثناء عملية الإنتاج و ستترك آثارا معينة فيما ينتجه ، ومع أن المرء لا يمكن أن يستبعد تماما دورا لإرادة الفردية في تحدي ما تفرضه أية مؤسسة ثقافية من قيود و أنظمة و أعراف و معايير و قيم و إجراءات إلا أنه من جهة أخرى لا يستطيع أن يبالغ كثيرا في الهامش المحدود و المتيسر لهذه الإرادة ، صحيح أنه يمكن أن يتجاوز قليلا «الرقص في السلاسل» و لكنه لا يمكن ان يبلغ اجتراح المعجزات ، فزمن المعجزات انتهى و العمالقة قلائل في زمن سيادة المؤسسات . ذلك أن ميادين المعرفة و التعلم ، كما يشير إدوارد سعيد بحق ، تخضع لضوابط محدودة و لفاعلية تأثير عليها من «المجتمع و التقاليد الثقافية و الظروف الدنيوية ، و المؤثرات التي تمنح الثبات كالمدارس ، و المكتبات ، والحكومات ، » وأن كلا من نمطي الكتابة المتفقة و التخيلي ليس حرا أبدا ، بل هو محدود في صوره ، و افتراضاته ، و نياته ،(٤) صحيح أن إمكانيات العمل متاحة في الثقافة لعقل عظيم

أصيل ليست أبدا دون حدود «ولكن» الموهبة العظيمة تشعر باحترام إيجابي سليم لما انجزه الآخرون قبلها ، و لما يحتويه حقل الدراسة الذي تعمل فيه »(٥) .

و هكذا فان المرء يميل إلى تأييد سعيد فيما ذهب اليه من أن :

«اعمال الأسلاف ، والحياة المؤسساتية لميدان من ميادين البحث، و الطبيعة الجماعية لأي مشروع متفقه ، تميل . . . إلى تقليل تأثير إنتاج الباحث الفرد . . وأن ميدانا كالاستشراق ليمتلك هوية تراكمية وجماعية هوية ذات قوة خاصة في ضوء ارتباطه بالمعرفة التقليدية (الدراسات الكلاسيكية ، الكتاب المقدس ، فقه اللغة) ، و بالمؤسسات العامة (الحكومات ، و الشركات التجارية ، و الجمعيات الجغرافية الجامعات) ، وبالكتابة التي يحدد طبيعتها الجنس الادبي الذي تنتمي إليه (كتب الرحلات ، و كتب الاستكشاف ، و الاستيهام الوصف الغريب المدهش) .—وقد كانت النتيجة بالنسبة للاستشراق تبلور نوع من الإجماع : إذ بدت أشياء معينة و أنماط معينة من التقريرات ، و أنماط معينة من الأعمال ، صحية في نظر المستشرق و قد بنى هو عمله و بحثه عليها ، ثم ضغطت هي بدورها بشدة على كتاب و باحثين جدد»(٥) .

لقد غدا الاستشراق بهذا الثقل التراكمي الهائل «نهجا من الرؤيا و الدراسة ، و الكتابة المنظمة المقننة (أو المشرقنة) ، تسيطر عليه الضرورات الحتمية و المنظورات و الأهواء العقائدية ، الملائمة ظاهريا للشرق . فالشرق يدرّس ، و يبحث ، و يدار ، و تصدر

عليه الأحكام بطرق معينة خفية محترسة(٥)» بوحي من هذا التقليد العريق و المتماسك . و بعبارة أخرى ان الإنشاءات الاستشراقية التي أنتجها ، وينتجها ، وسينتجها ، المستشرقون الأفراد، هي في نهاية الأمر ، نتاج مؤسسة كاملة خلقتها المجتمعات الأوربية للتعامل مع الشرق (بما فيه الوطن العربي) – «التعامل معه باصدار تقريرات حوله وإجازة الآراء فيه ، وإقرارها ، وبوصفه وتدريسه والاستقرار فيه(٦)..
وهذا النتاج بالنسبة للعربي ، المقيم في الوطن العربي بشكل خاص، يتجسد أساسا في هذا الكم الهائل(٧) من الكتب التي تنطوي على معرفة لها (مصداقيتها وتماسكها ومرجعيتها) موضوعها هو نفسه ، تاريخه وتراثه ، وثقافته ، وأدبه، ولغته، ومجتمعه، واقتصاده، وشؤونه ماجل منها وما صغر ، يتمثل بهذه المكتبة التي لا سبيل لأي باحث داخلي (من العرب) Insider أو خارجي (من غير العرب) Outsider أن يتجاهلها في رحلة تكوينه الثقافي . إنها أشبه ما تكون بمحطة متحركة متنامية لاغنى للمرء عن التوقف عندها باستمرار و التزود منها لمتابعة رحلة الكشف ، و زيادة الآفاق الجديدة ، و ليس ثمة من حاجة بالمرء إلى الإشارة إلى دور هذه المكتبة في تكوين الكثرة الكاثرة من مثقفينا معرفيا و فكريا و ثقافيا ، فنحن قوم مستهلكون للمعرفة بوجه عام ولا نتتج منها إلا القليل ، حتى تلك المعرفة المتصلة بأدبنا ولغتنا وثقافتنا وتاريخنا و تراثنا و مجتمعنا ، و كل شأن من شؤوننا لا نكاد نتتج منها ما يكفي أو يليق ، وهو على أي حال اقل مما ينسجم وحجم إسهام أجدادنا من جانب ، أو حجمنا الحالي في العالم المعاصر .

فماذا عن علاقتنا نحن العرب بهذه المؤسسة التي يشير إليها عنوان البحث ؟ ماذا عن «نحن» عن «الاستشراق» ؟

٢ ـ علاقة إشكالية :

٢ ـ ١ ـ نحن :

أما نحن فأمة عريقة تتمتع بجميع شروط الوحدة والقوة والفاعلية والقدرة على معاودة الإسهام الحضاري الذي عهده عنها العالم الوسيط وعالم عصر النهضة ، ولكنها اليوم أمة مفككة مجزأة قواها موزعة على كيانات تنوف على العشرين لكل منها أوضاعه وظروفه وحدوده ونشيده الوطني وعمله ومشكلاته وعلاقاته ، وعلى الرغم من أن عددا من هذه الكيانات قد خطا مؤخرا خطوات واعدة نحو تعزيز الروابط القومية فيما بينها من خلال مجالس متعددة ، إلا أن المرء يلاحظ أن لبعض هذه الكيانات من العلاقات الخارجية مع بعض الدول المجاورة ما هو أوثق من علاقاتها مع كيانات مجلس ما غدت عضوا مؤسسا فاعلا فيه .

وهي كذلك أمة تحاول النهوض مما هي فيه من تخلف تنتمي إليه الدول النامية التي تسعى لتطوير جميع وجوه الحياة فيها لتلحق بركب العالم المتقدم الذي خلفها وراءه منذ أكثر من خمسة قرون . وهي في محاولتها في النهوض تحتذي أنموذجا مباينا للأنموذج الذي عهدته ، وتجد نفسها لذلك موزعة بينهما وغالبا ما تصطرع في داخلها شتى القوى الجاذبة والنابذة في صلتها مع أي منهما .

وهذه الأمة المفككة المجزأة الساعية إلى النهوض محتذية في ذلك أنموذجا لم تألفه ، غير متأكدة من هويتها الآنية . إنها تعرف ماذا كانت وهي واثقة من ذلك تمام الثقة ولكنها ليست على الدرجة نفسها من الثقة عندما يأتي الأمر إلى ماهي عليه الآن ، أو ما ستكون عليه في المستقبل .

والحقيقة أن عملية المثاقفة التي عاشتها أمتنا العربية في القرنين الماضيين قلقلت كل وجوه الهوية العربية التي ألفتها في نفسها على مدى القرون ؛ وحسب هذه الامة قلقلة أنها تسير وعينها على مستقبل ما تتوخاه وتسعى إلى بنائه محتذية نموذجا ما ، وعينها الأخرى على ماض حاضر أبداً من خلال لغتها وتراثها وأعرافها ، وتقاليدها وتاريخها الشامخ .

وكأن هذه القلقلة لم تكفها ، فتداعى العالم لتعزيزها ؛ وكأن هذا التوزع المتكافىء الضدين لم يزلزلها ؛ فجاء العالم ليعمقـــه ؛ وكأن هذا الخطر الداخلي الكامن لم ينل منها بما فيه الكفاية ، فآزره خطر خارجي . والحقيقة أن هذه الامة ، على الرغم من جميع دواعي الثقة بالنفس المستلهمة من ماض متألق ، وحاضر واعد بالقوة ، أمة مهددة في وجودها السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وغير ذلك ، صحيح ان كل كيان عربي يشعر بالتهديد في وجه محدد من هذا الوجود أكثر من الوجوه الأخرى ، ولكن لايكاد يخلو كيان عربي واحد من الشعور بأنه مهدد على نحو من الأنحاء ، ولربما تنامى هذا الشعور ليبلغ درجة شعور «أخيل» بنقطة ضعفه الكامنة بعقبه ، وليصبح مصدر إحساس بالخطر شامل وعميق .

وواقع الحال ان هذا الإحساس الشامل والعميق ربما كان مصدره أن هذه الأمة ، منذ حملة بونابرت على مصر ، في حالة مواجهة مع الآخر مواجهة شاملة ـ لايكاد يفر منها وجه من وجوه حياة هذه الامة ، فهي مواجهة عسكرية حينا ، واقتصادية حينا ثانيا وسياسة حينا ثالثا ، واجتماعية حينا رابعا ، وثقافية حينا خامسا وفكرية حينا سادسا ، وادبية حينا سابعا ـ وخطيرة غالبا مايكون موضوعها الوجود العربي في جانب من الجوانب ، إن هذا الشعور بالخطر، المتزامن مع المواجهة، يجعل الأمة ، بشكل أو بآخر ، في حالة استنفار مرهق ومضن ، وتوتر لايفسحان المجال الكافي للتفكير بروية في أولوياتها أو في أهدافها القريبة أو البعيدة ، وفي سبل تحقيقها انطلاقا من الإمكانات المتاحة بالقوة أو بالفعل . إنه يقودها إلى نوع من التفكير الآني يسود كل وجه من وجوه حياتها،تفكير لاينظر إلى أبعد من موقع الخطو إن تداني وإلى أبعد من مستوى الانف إذا تسامى، وبالطبع فان أحداً ما لايمكن أن يقنع لأمته بهذا النوع من التفكير لأنه تفكير منشغل بلحظة الحاضر القلقة المقلقلة ، والزمن الحاضر وجود عابر ، لأنه لحظات تقبع في حجب الغيب سرعان ما تنزلق في هوة الماضي السحيقة .

وما يهمنا في هذا الحديث الصريح عن «نحن» هو أننا لم نستطع خلق تقليد ثقافي متماسك ومتسق يمكن أن يضارع التقليد الثقافي الذي طوره الآخر عبر القرون،فنحن مهما بالغنا في تقدير أهمية الدراسات العربية الحديثة المتصلة بمختلف وجوه حياتنا ، ومستواها لانستطيع أن نزعم أنها بلغت منزلة تستطيع معها أن تزاحم تقليد

الاستشراق في مستواه ونوعيته ، وحسب المرء أن يقارن بين المؤسسة العربية التي تقوم على إنتاج المعرفة المتصلة بالأمة العربية ماضيا وحاضرا ومستقبلا وبين المؤسسة الثقافية التي خلقها الآخر لإنتاج المعرفة عن هذه الأمة ، حتى نتفهم الفارق في الجدية والمستوى والنوع بين حصيلة هذه وتلك ؛ ومعنى هذا أننا نظل نحس بنوع من عقدة النقص تجاه هذه المعرفة التي ينتجها الآخر عنا ، إضافة إلى الشعور بتكافؤ الضدين في نظرتنا إليه وعلاقتنا به وموقفنا منه . فعلى الرغم من كل ما يمكن للمرء أن يقع عليه في التقليد الثقافي الموسوم بالاستشراق من مثالب وعيوب ونواقص ، وما يلمسه في قراءاته له من أهواء ونزعات مغرضة ، ومع كل ما يمكن أن يقال عنه أنه كان شريكا للانظمة السياسية في الغرب في استعمار الوطن العربي والتحكم بمقدراته ومصائر أهله ، وفي وضعه للمعرفة في خدمة القوة ؛ وبل وتسويغ استخدامها ضد الآخر – الضعيف فإنه لايمكن إلا أن يعترف ، وبأسف شديد حقا ، بأن دارس العرب والشرق عامة يظل يتحرك ضمن بيئة خلقها الآخر الخارجي(٨) .

فقد نجح هذا الخارجي ، على الرغم من كل شيء ، في خلق تقليد ثقافي متماسك له تاريخه العريق ويستطيع لا أن يشكل عقلية الدارسين الغربيين فحسب ؛ وإنما عقلية الدارسين الداخليين أيضا من العرب أنفسهم في أحايين كثيرة سواء أدرسوا في الغرب أم في مؤسسات الوطن العربي الأكاديمية المختلفة . وما ذلك إلا لأنه استطاع أن يقدم حصيلة ثقافية على قدر معقول من الموضوعية ، وعلى حد أدنى من مقتضيات البحث وشروطه ، لم يكد يصلها إلا عدد محدود من

الدراسات التي أنتجها الداخليون ممن يدعون الغيرة الشديدة على تراثهم وثقافتهم .

وربما كان مما يثير الشجون في النفس ان يرى المرء ان معظم الدارسين العرب المحدثين كانوا وما زالوا عالة على الآخر ، ليس فقط في مجال العلوم البحتة والعلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية المختلفة وحدها ، وإنما في ميادين الدراسات المتعلقة بتاريخهم وأدبهم وثقافتهم وحضارتهم بشكل عام . فنحن نستورد هذه الدراسات المكتوبة بالإنكليزية أو الفرنسية أو الالمانية أو الروسية أو الاسبانية أو الإيطالية أو غيرها من اللغات مثلما نستورد كتب الطب و الهندسة و الفيزياء والرياضيات وغيرها وبالطريقة التي نستورد فيها الطائرة والسيارة والآلة الحاسبة والمدفع والدبابة والحاسوب وغير ذلك .

وبالطبع لاحاجة إلى القول بأننا في كثير من الأحايين لانرضى عما فيها من آراء ونظريات ، تنعتها باستمرار بأنها متعسفة أو مغرضة أو غير موضوعية أو متحيزة أو عنصرية أو غير مستقصية أو غير شاملة أو سواها من الصفات ، (وقد تكون كذلك حقا) دون أن نستطيع أن نقدم البديل عنها ، فنحن حتى يومنا هذا لم نتمكن من فرض أنفسنا ، من خلال إنتاجنا العلمي والثقافي بالطبع ، حجة في دراسة شؤوننا المختلفة . وإذا كان عجزنا عن إنتاج سيارة أو طائرة أو دبابة أو حاسوب مسوغ بسبب طبيعة الظروف التي مرت بها الأمة العربية خلال القرون الماضية ، فان من غير المسوغ على الإطلاق أن نظل عاجزين عن تقديم دراسات جادة وعميقة وحديثة ومنتمية للعصر عن أدبنا وثقافتنا وتاريخنا وحضارتنا يمكن أن تنهض للمقارنة

كما وكيفا مع ما ينتجه الآخرون من أشياء تتعلق بنا ونحن أولى بها منهم .

ومقابل هذا الإنتاج البحثي والعلمي والثقافي المتواضع ، نجد تقليد الاستشراق العريق نسبيا و المتماسك والواسع النفوذ . فماذا نلاحظ في نظرتنا اليه ؟

٢ ـ ب ـ الاستشراق :

أول ما يمكن أن نشير إليه في هذا التقليد أنه تقليد ثقافي أجنبي ينتجه الآخر وليس نحن ، وبالتالي فاننا لانملك من سبل التدخل في شؤونه ، أو التحكم في مادته الأولية ، أو في نتاجه النهائي ، أو في عملية إنتاجه نفسها أي دور ، مالم نجلس مجلس هذا الآخر ، ونرتدي قبعته ونغدو جزءاً من آلته ، وعندها ربما لن ننتج إلا شيئا قريبا منه شكلا وروحا ، مبنى ومعنى .

وربما كان من المفارقة حقا أننا على الرغم ،من كوننا موضوع هذا التقليد الثقافي ، لانكاد نميز انفسنا فيه عندما نقرؤه ، فنحن موضوعه افتراضا ، ولسنا موضوعه واقعا . فنحن كما نتجلى في الاستشراق مجرد نظام من التمثيلات مؤطر بطقم كامل من القوى التي قادتنا إلى مجال المعرفة الغربية والوعي الغربي ، وفي مرحلة تالية الامبراطورية الغربية . فالاستشراق ومدرسة للتفسير حدث أن كانت مادتها الشرق بحضارته ، وشعوبه ، وأقاليمه المحلية . واكتشافات الاستشراق الموضوعية . . . كانت دائما وما تزال مشروطة محددة

بكون حقائق الاستشراق مثل أية حقائق أخرى تنقلها اللغة ، متجسدة في اللغة ، وأي حقيقة هي حقيقة اللغة ، كما قال نيتشة مرة ، سوى :

جيش متحرك من الاستعارات ، والكنايات ، والتشبيهات المجسمة ، وبايجاز ، خلاصة من العلاقات الانسانية عمقت ، ونقلت ، وزخرفت ، شعريا وبلاغيا ، وصارت ، بعد استعمال طويل تبدو صلبة ، شرائعية ، وملزمة لشعب ، الحقائق ايهامات نسي المرء انها كذلك .

قد يصدمنا رأي كرأي نيتشه هذا بوصفه مغاليا في العدمية ، لكنه على الأقل يجذب انتباهنا إلى أن الشرق ، من حيث وجد في وعي الغرب ، كان لفظة تنامى لها فيما بعد حقل واسع من المعاني ، والترابطات والتضمينات ، وأن هذه جميعا لم تكن تشير . . بالضرورة إلى الشرق الحقيقي ، بل إلى الحقل المحيط باللفظة(٩) » .

وبكلمات اخرى كان الاستشراق مجرد «حقل» لايوجد معادل مطابق له في الشرق نفسه(٩) ، كما يقول إدوراد و سعيد .

نحن إذن موضوع الاستشراق ولسنا موضوعه في آن معا ، وربما كان هذا وراء معاناتنا من عقابيله ، فقد كان هذا الاستشراق معرفة وظفت في السيطرة علينا واستلابنا من سيادتنا السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والادبية ، بل وتطهير أرضنا منا كما يحدث اليوم في فلسطين المحتلة .

لقد اشتملت هذه المعرفة على شريحة من المعتقدات المذهبية حول الوطن العربي حولت الاوربي في علاقته بنا إلى عنصري عرقي

إمبريالي ، والى درجة كلية تقريبا ، عرقي التمركز . وهكذا دفع الوطن العربي ، ويدفع ، وربما سيظل يدفع الكثير الى أن تتبدل هذه المعرفة الراسخة عنه وتتغير جذريا .

ونحن كذلك نقطة الارتكاز في هذه المعرفة ، التي أنتجها باحثون نذروا أنفسهم لها ، نحظى بكل اهتمامها ؛ ومع ذلك فنحن نشعر بقدر كبير من النقص تجاهها ، وتجاه منتجيها الذين يعرفون عنا عن لغتنا ، وتاريخنا ، وثقافتنا، وتراثنا ، وعقائدنا ، ومجتمعنا وكل شؤوننا اكثر مما نعرفه نحن عن كل ذلك . ومع ذلك فانها معرفة لاتستطيع أن تقيم جسورا حميمة معنا ؛ إنها معرفة تغربنا ؛ تذكرنا بضعفنا ، فالمعرفة قوة ، ونحن لانملكها فمن أين لنا بالقوة . لأنها أولا كتبت بلغات غير لغتنا ، ونحن بحاجة إلى تخطي هذا الحاجز قبل أن نقيم أي تواصل معها ، ولأنها ثانيا مكتوبة لغيرنا لانقع منها موقع المتلقي ولذلك فانها لاتعنى بتوقعاتنا ، أو بأحاسيسنا ، أو بأهوائنا أو برغباتنا، أو بعواطفنا ، ولاتبدي حساسية كافية تجاه عقائدنا، وأعرافنا وقيمنا بل إنها كثيرا ما تتجاهلها ؛ ولربما تمسها على نحو من الانحاء ؛ وبدل النشوة التي تنتهي بها أية تجربة قراءة لمادة تتصل بالذات القارئة نجد الإحباط والخيبة والمرارة وما شابهها ؛ وغني عن البيان الإشارة إلى أن هذه المعرفة تتخذ لنفسها أشكالاً من الإنشاءات وأجناساً من الكتابة مباينة بوجه أو بآخر لأشكال الإنشاءات وأجناس الكتابة التي عرفتها الثقافة العربية حتى مطلع ما يسمى بعصر النهضة العربية أو بداية المواجهة الخطيرة والشاملة مع الآخر بالحملة الفرنسية على مصر . وهكذا نرى أن كل شيء في هذه المعرفة يمثل اشكالا

بالنسبة للعربي ، ومن هنا كان موقف العربي من هذه المعرفة التي ينتجها الآخر عنه أو الاستشراق إشكاليا ، إنه إشكال المعرفة بالقوة الذي يحكم علاقتنا «نحن» بتلك المعرفة التي ينتجها الآخر عنا التي نسميها «الاستشراق» الذي كان الإفصاح عن إرادة أقوى في مواجهة عالم مختلف ولكنه أضعف – الإفصاح الذي رسخ مساواة اختلاف الشرق بضعفه(١٠) ، وسعى إلى إبقائه ضعيفا ليبقى متخلفا ، مجرد مجال لممارسة الإرادة الأقوى مهما بلغت فداحة الثمن الإنساني .

←

حواشي البحث :

(١) شارك صاحب هذه السطور في العديد من المؤتمرات والندوات وحلقات البحوث التي عقدت في المملكة المتحدة بين عامي ١٩٧٦ – ١٩٨٣ .

(٢) نشر صاحب هذه السطور مشاركاته في الدراسات العربية في الغرب ومتابعاته لها بالعربية والانكليزية في العديد من الدوريات من بينها مجلة مجمع اللغة العربية (دمشق) . والتراث العربي (دمشق) ، ودراسات تاريخية (دمشق) ، والموقف الأدبي (دمشق) ، والمعرفة (دمشق) ، والبعث (دمشق) ، وتشرين (دمشق) ، و Syria Times (دمشق) ، والمستقبل العربي (بيروت) ، والطريق (بيروت) ، واليرموك (إربد) ، والأقلام (بغداد) والدستور (لندن) ، و UR (لندن) ، AZURE (لندن)، و British Society for Middle Eastern Studies Bulletin (أكسفورد)، و Journal of Arabic Literature (ليدن) ، وغيرها .

(٣) كان اخر ما قدمه صاحب هذه السطور في هذا المجال عدداً من الاحاديث التلفزيونية تحت عنوان « نحن والعالم ثقافياً » من خلال برنامج المجلة الثقافية الذي تبثه القناة الأولى في التلفزيون العربي السوري مساء كل أربعاء .

(٤) ادوارد سعيد ، الاستشراق : المعرفة ، السلطة ، الانشاء ، نقله إلى العربية كمال أبو ديب ، (مؤسسة الأبحاث العربية) ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص (٢١٣) .

(٥) المرجع نفسه ، ص (٢١٤) .

(٦) المرجع نفسه ، ص (٣٩) .

(٧) يذكر سعيد في الاستشراق . . . ، أن حوالي ٦٠,٠٠٠ كتاب تتعلق بالشرق الأدنى قد كتبت بين ١٨٠٠ و ١٩٥٠ في الغرب . وانظر المرجع السابق ، ص (٢١٦) .

(٨) في الأفق بوادر مشجعة وواعدة من إسهامات الداخليين من العرب أنفسهم .

(٩) سعيد ، الاستشراق . . . ، ص ص (٢١٤ – ٢١٥) .

(١٠) المرجع نفسه ، ص (١٠) .